فتح مكة

كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية

كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية فى جزيرة العرب كلها؛ وكانت الكعبة مجمع الأصنام وقبلة الأنظار، ومطمح آمال القبائل قريبها وبعيدها؛ وكانت قريش حارسة الكعبة وسادنة البيت، وإليها الرياسة والقيادة فى أمور الدين؛ وكانت منزلة القبائل من قريش فى هذه الناحية منزلة المسود من السيد، والتابع من المتبوع. ومن هنا كانت قبائل العرب على اختلافها تنظر إلى المعركة الدائرة بين محمد وقريش نظرة الجد والاهتمام، وتتابع حركاتها وخطواتها متابعة دقيقة، وكانت كل حركة من هذه الحركات، وكل خطوة من هذه الخطا تترك فى اتجاهات القبائل أثرًا بارزًا، من حيث إقبالها على الإسلام أوإعراضها عنه، ومن حيث اجتماعها له أو اجتماعها عليه.

ومع أن الحوادث والمعارك التى وقعت فى الجزيرة بين المسلمين وقريش، وبين المسلمين واليهود، وبين المسلمين والروم،

وبين المسلمين وقبائل العرب فى نواحى الجزيرة.. كانت ذات أثر فى ظهور الإسلام وانتشاره فى كثير من القبائل، فإن بقاء مكة على شركها - وهى أم القرى ومعقل الوثنية - ظل سدًّا حائلا دون خلوص الجزيرة العربية للإسلام وحده، وظلت قريش بحكم زعامتها الدينية هى العقبة الكئود فى طريقه. وكان لابد - لكى تخلُص جزيرة العرب للإسلام، ولكى ترتضيه القبائل دينها وعقيدتها - أن تؤمن به قريش، وأن تحتضنه مكة أم القرى.

كان صلح الحديبية أول مفاتيح هذا المعقل العتيد

وكان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش فى أواخر السنة السادسة أول مفاتيح هذا المعقل العتيد؛ فقد اعترفت قريش فى ذلك الصلح بأن محمدًا صاحب مذهب جديد، وأنه لا بأس من أن تقيم بينه وبينها عهدًا يستقر به السلم فيما بينها وبينه، بعد ما عجزت تمام العجز عن القضاء عليه وعلى مذهبه..

لقد ظلت قريش دهرًا طويلا لا تعترف بمحمد، ولا بما ذهب إليه من هذا الدين الذى خالف به دينها وعقائدها، وخرج به على تقاليدها وتقاليد آبائها، وقلب به أوضاعها رأسًا على عقب؛ وظلت فى كبريائها وتعاظمها تفترى عليه الأكاذيب،

وتصفه بما تشاء من الأوصاف التى تشوه سمعته ودعوته بين العرب. فلما عجزت بكل وسائلها أن تقضى عليه وعلى دعوته، اضطرت أن تنزله منها منزلة الند من الند، وأن تصالحه - ولو إلى حين - لتتقى خطره وتأمن جانبه؛ فكان هذا الصلح أول مفتاح فك الله به أغلاق مكة.

وكانت عمرة القضاء هى مفتاحه الثانى

ثم كانت عُمرة القضاء بعد ذلك بعام هى المفتاح الثانى من مفاتيح ذلك الحصن؛ فقد كان مظهر المسلمين فى هذه العمرة، وهم فى توادّهم وتراحمهم، وفى ائتلافهم وتضامنهم، وفى حسن انقيادهم ودقة نظامهم، وفى صدق محبتهم وإخلاصهم لرسولهم، وفى عظيم حماستهم لدينهم وشدة تمسكهم بآدابه، وفى بالغ تقديسهم للبيت وتعظيم حرماته، وفى كل ما كانوا يؤدونه من شعائر هذه العمرة،وهم فى هذه الحماسة، وهذه الألفة، وهذا النظام، وهذا الترفع عن كل ما يشين أخلاق الرجال.. كان مظهر المسلمين فى كل هذا مظهرًا هز نفوس أهل مكة هزًّا عنيفًا، ولمس مكان العقيدة من قلوبهم فزلزلها زلزالاً شديدًا؛ فأخذوا ينظرون إلى المسلمين نظرة الإعجاب والإكبار، وينظرون إلى الإسلام نظرة التفكير والتدبر؛ وجعلوا يقارنون بين هذا

الدين وما هم عليه من دين وعقيدة، ومن تقاليد لا يقبلها عقل ولايقرها منطق، ويوازنون بين هذه الشعائر التى يؤديها المسلمون فى خشوع وانسجام، وبين ما يفعلون هم فى عبادتهم من لغو ولهو، وما يقومون به عند البيت من مُكَاء وتَصْدِيَة...[1]

نعم، أخذوا ينظرون ويتفكرون، فوجدوا فرقًا شاسعًا وبَوْنًا بعيدًا بين ما هم عليه وما عليه محمد ﷺ وأتباعه؛ فلانت قلوبهم للإسلام، وصَغَت إليه أفئدتهم، فأسلم منهم من استطاع أن يجهر بإسلامه، وأسر الإسلام من لم يستطع أن يجاهر به ويستعلن، وتهيأ بقلبه ونفسه كثير منهم لأن يسلموا، لولا ظروف حائلة ومنافع عاجلة ظلت تمنعهم إلى حين؛ فكانت هذه الزلزلة التى أصيبت بها عقيدة أهل مكة فى عمرة القضاء، مفتاحًا آخر فك الله به أغلاق مكة.

ثم نقضت قريش عهد الحديبية

ثم أراد الله بعد ذلك أن يفك كل ما بقى من أغلاق هذا الحصن، فكان ما كان فى السنة الثامنة من نقض قريش لعهد الحديبية.. ذلك أنه كان بين قبيلتى بكر وخزاعة دماء وترات فى

---

(١) المكاء: الصفير الخفيف، والتصدية: التصفيق. ولعل هذا شبيه بما يفعله العامة الآن فى أذكارهم.

الجاهلية؛ فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بكر فى عهد قريش، هدأت الحرب بين القبيلتين، وأمِن كل فريق جانب عدوه. ثم حدث أن رجلا من قبيلة بكر وقف ذات يوم يهجو رسول الله ﷺ على مسمع من رجل خزاعى، فقام إليه الخزاعى فضربه، فحرك ذلك ما بين القبيلتين من عداوة قديمة، وأخذت قبيلة بكر تعد عدتها للانتقام من خزاعة، وأعانهم على ذلك رجال من قريش.

وفى ذات ليلة كانت خزاعة على ماء لها يسمى «الوَتِير»، فباغتها رجال بكر ومن مالأهم من رجال قريش، فلجأت خزاعة إلى الحرم لتحتمى به، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها، حتى قتلوا منها نحو عشرين رجلا؛ فاستنصرت خزاعة رسول الله ﷺ، وذهب رجال منهم إلى المدينة، فأخبروا رسول الله ﷺ بما كان من غدر بكر بهم، ومعاونة قريش عليهم، وكان مما قال زعيمهم عمرو بن سالم:

يارب إنى ناشدٌ محمدا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدا[1]
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا ركَّعًا وسُجَّدا[2]

(١) القديم العهد.

(٢) غدروا بنا ونحن عاكفون على صلاتنا فى الليل.

فانصر-هداك الله-نصرًا أيدا[1]   وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نُصرت يا عمرو بن سالم».. ووجد أن الفرصة بذلك قد تهيأت لفتح مكة، فأخذ يعد عدته لهذا الفتح.

أبو سفيان يحاول جهده أن يصلح ما أفسدته قريش

وقدر رسول الله ﷺ أن قريشًا ستدرك سوء ما صنعت، وأنها لا بد مرسلة إليه لتصلح ما أفسد الغدر بينها وبينه، فقال لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم، ليشُد فى العقد ويزيد فى المدة». وكان ما قدر الرسول وما توقع، فقد أحسَّت قريش بما وراء غدرها ذاك من سوء العاقبة، فأوفدت إلى المدينة زعيمها أبا سفيان بن حرب، لعله يستطيع أن يتلافى نتائج هذه الغلطة. وكان أبو سفيان يحس خطر الأمر الذى هو مقدم عليه، فلم يشأ أن يذهب توًّا إلى رسول الله ﷺ حتى يمهد الطريق للقائه؛ فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله، ليستشفع بها إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه أم حبيبة؛ فعجب

(١) نصرًا عزيزًا.

أبو سفيان لما رأى من فعل ابنته، وقال لها: "يابنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى"! فجابهته ابنته فى صراحة تقول: "بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، صلى الله عليه وسلم"! فكانت صدمة شديدة الوقع على نفس أبى سفيان، لم يكن يتوقعها من أقرب الناس إليه؛ فلم يملك أن قال لابنته معبرًا عما ناله من المهانة: "والله لقد أصابك بعدى يا بنيَّةُ شر"!

ثم خرج مضعضَع النفس مكلوم الفؤاد، حتى دخل على رسول الله ﷺ فى المسجد، فكلمه فلم يرد عليه شيئًا، فكانت هذه صدمة أنكى من الأولى؛ فخرج من المسجد أشد ما يكون تضعضُعًا وانكسارًا، وذهب يستشفع بأصحاب رسول الله إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فلم يجد منهم من يجيب رجاءه.. ذهب إلى أبى بكر فاعتذر إليه فى لطف، وذهب إلى عمر فأغلظ له القول ورد عليه فى جفاء يقول: "أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟! فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به" فذهب إلى على بن أبى طالب فقال له: "يا على، إنك أمَسُّ القوم بى رحماً، وقد جئت فى حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائبًا؛ فاشفع لى"! فقال له على: "ويحك يا أبا سفيان! والله

لقد عزم رسول الله، على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه"!

وقيل: إن أبا سفيان ذهب إلى عثمان بن عفان، وإلى سعد ابن عبادة، وإلى غيرهما من أكابر المهاجرين والأنصار، فكلهم يقول له: "جِواري في جوار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وما يُجير أحد عليه".. فلما أيس منهم دخل على فاطمة - وعندها الحسن ابنها غلام يَدِبّ بين يديها - فقال لها: "يا بنت محمد، هل لك أن تُجيري بين الناس"؟ فقالت: "إنما أنا امرأة"! فقال لها: "مُري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر"! فقالت: "والله ما بلغ بُنَيّ هذا أن يجير بين الناس، ما يجير أحد على رسول الله، صلى الله عليه وسلم".

فرجع أبو سفيان إلى علي فقال له: "يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني".. فقال له علي: "والله ما أعلم شيئًا يُغني عنك؛ ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجِرْ بين الناس[1] ثم الحقْ بأرضك". قال: "أوَ ترى ذلك مُغْنِيًا عني شيئًا"؟ قال: "لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غيره".. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: "أيها الناس؛ إني

(١) الإجارة بمعنى الحماية وأجار بين الناس: حال دون وقوع الشر بينهم، وكان من عادة الزعماء في العرب أن يفعلوا ذلك، فيستجيب الناس لهم ويجيزون قولهم.

قد أجرت بين الناس".. ثم ركب بعيره وانطلق راجعًا إلى مكة، وهو يتجرع مرارة الخيبة والانكسار والهوان.

فلما قدم على قريش قالوا له: "ما وراءك"؟ قال: "جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد علي شيئًا!.. ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا!.. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو!.. ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري أيغني شيئًا أم لا". قالوا: "وما ذاك"؟ قال: "أمرني أن أجير بين الناس.. ففعلت". قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: "لا"! قالوا: "ويلك! والله ما زاد الرجل على أن لعب بك".

أخذ الرسول يتجهز لفتح مكة، وكان حريصًا على ألا يريق دمًا

وأخذ رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من الأعراب أن يحضروا رمضان بالمدينة؛ فأخذت القبائل تتوافد على المدينة وتعسكر بأرضها. وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على ألا يريق دمًا بمكة فأخفى مقصده على الناس، ووضع على أفواه الطرق والأنقاب[1] حراسًا يراقبونها،

(١) الأنقاب: جمع نقب، وهو فم الطريق ومدخل البلد.

فلا يدعون أحدًا يمر بهم ينكرونه إلا ردوه. فلما اجتمع الناس واحتشدوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار على قريش حتى يَبْغَتَها فى بلادها.

غلطة حاطب بن أبى بلتعة

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى قريش وأعلم الناس بوجهته، كتب حاطب بن أبى بَلْتَعَةَ كتابًا إلى قريش، يخبرهم بما عزم عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ واستأجر امرأة من مُزَيْنة فأعطاها الكتاب، وأمرها أن تتلطف وتحتال حتى تبلغه قريشًا؛ فأخذت المرأة الكتاب فأخفته، وسلكت طريقها على غير نَقْب حتى خرجت من المدينة، ثم استقامت على الطريق إلى مكة. وأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فأرسل على بن أبى طالب والزبيرَ بن العوام فى أثر المرأة، فأدركاها فى الطريق، واستخرجا منها الكتاب فأحضراه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فدعا رسول الله حاطبًا فأطلعه على الكتاب، ثم قال له: «ما حملك على هذا»؟ فظن حاطب أنه هالك لا محالة، وأنه لا نجاة له - إن كانت له نجاة - إلا بأن يَصْدُقَ رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم. فقال: «يا رسول الله لا تَعْجَل علىّ؛ فو الله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت

ولا بدلت؛ ولكنى كنت امرًا ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه[1]، وكان من معك من المهاجرين - ممن له أهل أو مال بمكة - لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت - إذ فاتنى النسب فى قريش - أن أتخذ عندهم يدًا[2] يحمون بها قرابتى؛ ولم أفعله ارتدادًا عن دينى، ولا رضًا بالكفر بعد الإيمان.. !"

الرسول يقيل عثرة حاطب

ورأى رسول الله ﷺ صدق لهجة حاطب، وحسن نيته فيما أقدم عليه من ذلك الذنب، فقال لمن حوله: «أما إنه قد صَدَقكم فيما أخبركم به». ونظر صلى الله عليه وسلم إلى ماضى الرجل فى الجهاد، وحسن بلائه فى الذَّوْد عن حرمات الإسلام، فرغب فى العفو عنه. أما عمر فقد كبُر عليه أمر هذه الخيانة، وأن يكون مرتكبُها واحدًا من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى حاطب يقول: "قاتلك الله! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش؟.. يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق"!.. فتبسم رسول الله من حماسة عمر

(١) المصانعة: المجاملة والسبق بالمعروف.

(٢) اليد: المكرمة والجميل.

وقال : «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»! فدمعت عينا عمر وقال : "الله ورسوله أعلم".. !

وفى هذه الحادثة أنزل الله تعالى صدر سورة الممتَحنَة، يحذر المؤمنين من أن يوالوا عدوهم، أو يطلعوه على بعض أسرارهم، مهما يكن السبب الذى يدفع إلى ذلك، فإن العدو عدو حيثما كان، ومُوادَّة العدو خيانة ليس بعدها خيانة.. قال تعالى : ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمودَّةِ وقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أنْ تُؤمِنُوا باللهِ رَبِّكُمْ، إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهادًا فى سَبيلى وابْتِغَاء مَرْضَاتى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أعلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وما أعْلَنتُمْ ومَنْ يَفْعلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إنْ يَثْقَفُوكُمْ يكُونُوا لَكُمْ أعْدَاء ويَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ وأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ ولاَ أَوْلادُكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

(١) سورة الممتحنة الآيات ١ ـ ٣.

جيش الفتح

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذر الغفارى، وخرج منها فى نحو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وممن وَفَد على المدينة من قبائل العرب. وسار هذا الجيش العريض يقطع الصحراء الواسعة سعيًا إلى مكة، لا ليسفك الدماء ويقتل الأبرياء، ولا ليسلب الأموال ويغتال الحقوق، ولكن ليفتح أغلاق البلد الحرام، ويرفع دونه الحواجز والسدود، ويجعله - كما جعله الله - مَثَابة للناس وأمنًا، وينشر فيه دين الحق الذى بعث به رسله، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

العباس يعمل على تأمين قريش

فلما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق، لقيه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله إلى المدينة، فكانت هذه اللُّقْيا مصادفة مباركة، حَقَن الله بها الدماء ويسر الأمور، وذلل بها طريق الفتح على ما كان يرجو رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد بعث العباسُ بأهله إلى المدينة، ورجع مع جيش رسول الله إلى مكة؛ فلما صار الجيش على نحو مرحلة منها نزل رسول الله ونزل أصحابه؛ وكان الوقت عَشيًّا، فأمر رسول الله

ﷺ بأن يوقدوا النيران جميعًا حيث نزلوا، فأوقدوا عشرة آلاف نار، فظهر ضوؤها يسطع فى ظلام الصحراء، ويتلألأ فى فضائها الواسع، حتى جعل ليلها نهارًا؛ فراع ذلك العباس، وخشى على أهل مكة نتائج هذه المفاجأة الخطيرة، وقدَّر ما عسى أن يكون من مقاومة قريش لهذا الجيش اللَّجِب، وما عسى أن يكون لذلك من خسارة فى الأنفس والأموال، فجعل يفكر فى طريقة يستطيع بها أن يؤَمِّن قريشًا، وينقذهم من هذا الهلاك الذى يوشك أن يحل بهم.

يقول العباس: «لما نزل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، "مَرَّ الظَّهْران"، رقَّت نفسى لأهل مكة وقلت: وَاصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله مكة عَنْوَةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر! (قال): فجلست على بغلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخرجت عليها حتى جئت الأراك[1]، فقلت: لعلِّى أجد بعض الحطَّابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكان من قضاء الله وقَدَره أن خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم

(١) الأراك: واد قرب مكة يكثر فيه شجر الأراك، وهو الشجر الذى يؤخذ منه السواك.

ابن حزام وبُدَيْل بن وَرْقاءَ يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرًا أو يسمعون به؛ فوالله إني لأسير على بغلة رسول الله التمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: "ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا"! فيقول له بديل: "هذه - والله - خزاعة قد حَمَشَتها[1] الحرب". فيقول أبو سفيان: "خزاعة أذَلُّ وأقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها".

(قال العباس): فعرفت صوته، فقلت: "يا أبا حنظلة"! فعرف صوتي، فقال: "أبو الفضل"؟ قلت: "نعم". قال: "ما لك، فداك أبي وأمي"! قلت: "ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الناس.. واصباحَ قريش والله"! قال: "فما الحيلة، فداك أبي وأمي"؟ قلت: "والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك! فاركب في عَجُزِ هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك".

(قال): فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به: كلما مررت على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته..

---

(١) حمشتها (بالشين): أي أحرقتها، وحمستها (بالسين) أي اشتدت عليها.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: "من هذا"؟ وقام إلىّ. فلما رأى أبا سفيان على عجُز الدابة قال: "أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد"! ثم خرج يشتد نحو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وركَضْت البغلة فسبقته، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله، ودخل عمر فى أثرى فقال: "يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى فلأضربن عنقه"! قلت: "يا رسول الله، إنى قد أجرته". ثم جلست إلى رسول الله فأخذت برأسه، وقلت: والله لا يناجيه الليلة دونى رجل..

وما زال العباس وعمر عند رسول الله ﷺ يتراجعان فى شأن أبى سفيان، حتى قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتنى به».

أبو سفيان يعتنق الإسلام

(قال العباس): فذهبت به إلى رحلى فبات عندى. فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»؟ قال: "بأبى أنت وأمى، ما أحْلَمَك وأكرمَك وأوْصَلك!

والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد". قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله»؟ قال: "بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه فوالله إن فى النفس منها حتى الآن شيئًا".. فقال له العباس: "ويحك! أسْلِم واشهدْ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك"! (قال): فشهد شهادة الحق. فقلت: "يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا». قال: «نعم.. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «يا عباس، احتَبِسْه بمضيق الوادى عند خَطْم الجبل[1]، حتى تمر به جنود الله فيراها».. (قال): فخرجت به حتى حبسته حيث أمرنى رسول الله ﷺ أن أحبسه. ومرت القبائل على راياتها، فما تمر قبيلة إلا سألنى عنها، حتى مر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، رضى الله عنهم، لا يُرَى منهم إلا الحَدَق من الحديد. فقال: "سبحان

(١) الخطم: منقار الطائر، ومقدم أنف الدابة وفمها، وهو هنا بمعنى منقطع الجبل بدءًا أو نهاية.

الله يا عباس! من هؤلاء"؟ قلت: "هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار". فقال: "ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغَداةَ عظيماً"! قلت: "ويحك! إنها النبوة". قال: "فنعم إذن[1]"! قلت: "النَّجاء إلى قومك"..

أبو سفيان ينذر قريشًا ويدعوها إلى التسليم دون مقاومة

فسار.. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"! فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بلحيته وقالت: "اقتلوا هذا الشيخ الأحمق.. قُبِّح من طليعة قوم".. ! قال: "ويلكم! لا تَغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"! قالوا: "قاتلك الله! وما تغني عنا دارك"؟ قال: "ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"!

---

(١) هذه العبارة فيها روح التهكم والاستنكار، يقولها غير المصدق كما يقولها المغلوب على أمره حين لا يجد له بدًّا من التصديق: لعلها تقابل في لغتنا العامية «أيوه صحيح... بق كده!!».

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد».

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طُوًى وصار على أبواب مكة، فرَّق الجيش على مداخلها، وأطبق عليها من جميع نواحيها؛ فأمر الزبير بن العوام أن يدخل بفريقه من ناحية، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل بفريقه من ناحية، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بفريقه من ناحية، وقدَّم بين يديه أبا عبيدة بن الجراح ودخل صلى الله عليه وسلم من ناحية «أذاخِر»، حتى نزل بأعلى مكة، وضُربت له هناك قبة.

كان الرسول حريصًا على ألا يراق دم بمكة

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا أشد الحرص على ألا يراق دمٌ بمكة، فنهى عن القتال. وبلغ من حرصه على صون الدماء أن خلع سعد بن عبادة من الإمارة، وأسلمها إلى ابنه قيس بن سعد، حين بلغه أن سعدًا قال يتوعد قريشًا وهو يتوجه لدخول مكة: "اليوم يوم الملحمة! اليوم تُستحَلُّ الحرمة". ولكن أراد الله، جلت حكمته، أن تسفك فى ذلك الفتح الأبيض بضع قطرات من الدم؛ فقد وجد خالد بن الوليد من ناحيته مقاومة من بعض رجال مكة، فاضطر إلى مقابلة القوة بالقوة، فقُتل فى أثناء ذلك رجلان من المسلمين،

وبضعة وعشرون رجلا من رجال قريش. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك غضب وقال: «ألم أنْهَ عن القتال»؟ فقيل له: يا رسول، إن خالدًا قوتل فقاتل. فقال: «قضاء الله خير»!

الرسول يدخل مكة فى تواضع وخشوع

وهكذا دخلت جيوش المسلمين مكة بلا مقاومة، وتم فتح البلد الأمين بلا كبير قتال، ودخل صلى الله عليه وسلم على ناقته، لا كما يدخل الفاتحون فى كبريائهم وجبروتهم، بل دخل خاشعًا متواضعًا مكبًّا على رحل ناقته، يكاد رأسه يلمس واسطة الرحل، شكرًا لله على ما أنعم به من هذا الفتح المبين، وما منّ به من هذا الفضل الكبير.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الفتح، حتى انتهى إلى الكعبة ومعه المسلمون، فاستلم الركن بِمِحْجَنِه[1] وكبر، فكبر المسلمون بتكبيره، حتى ارتجت لتكبيرهم أرجاء مكة، وحتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا. ثم طاف بالبيت سعيًا على ناقته، وهو فى كل طَوْفَة يستلم الحجر الأسود بمحجنه حتى أتم طوافه.

---

(١) المحجن: عصا قصيرة، لعلها تشبه العصا التى يمسكها طلبة البوليس والحربية فى أيديهم الآن.

ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من طوافه نزل عن راحلته، ثم انتهى إلى المقام فصلى فيه ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فشرب منها وتوضأ؛ والمسلمون حوله يَبْتَدرون وَضوءه[1] يصبونه على وجوههم، والمشركون ينظرون ويعجبون لما يرون من هذا ويقولون: "ما رأينا مُلْكًا أبلغ من هذا ولا سمعنا به"!..

الرسول يعفو عن أعدائه عفوًا لامثيل له فى تاريخ البشرية

ثم جلس صلى الله عليه وسلم فى ناحية المسجد، وأبو بكر قائم على رأسه بالسيف، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له الكعبة، فدخلها فصلى بها ركعتين، ثم وقف على باب الكعبة فقال: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"!.. ثم خطب خطبة طويلة، ذكر فيها جملة من الأحكام، ثم قال: "يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء.. الناس من آدم، وآدم من تراب". ثم تلا هذه الآية: ﴿يأيها الناسُ إنا خَلَقناكم من ذكرٍ وأنثىٰ وجَعَلناكم شعُوبًا وقبائلَ لِتَعَارَفوا إنّ

(١) الوضوء - بفتح الواو -: الماء الذى يُتوضأ به.

أكرمَكم عند الله أتْقاكم إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾[1]. ثم قال: «يا معشر قريش، ماذا تقولون؟ وماذا تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: "خيرًا.. أخ كريم وابن أخ كريم"! قال: «أقول كما قال أخى يوسف: لا تَثْريبَ عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحمُ الراحمين..! اذهبوا فأنتم الطلقاء»!..

* * *

تُرى أكان أهل مكة يرجون مثل هذا العفو، لو أن فاتح مكة كان قائدًا من القواد أو ملكًا من الملوك؟.. أعتقد أننا لو تصفحنا التاريخ من أوله إلى آخره، لما وجدنا رجلا واحدًا وقف من أعدائه هذا الموقف الكريم.. نعم، ليس فى التاريخ كله موقف بلغ من السماحة ما بلغه هذا الموقف، ولا صورة بلغت من السمو ما بلغته هذه الصورة، لأنه ليس فى الناس كلهم بشر بلغ من الكمال الإنسانى ما بلغه محمد رسول الله!

ليس عجبًا إذن أن يقف رسول الله من أعدائه هذا الموقف الفريد فى التاريخ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم ملكًا ولا قائدًا، ولم يكن يرمى إلى ما يرمى إليه الملوك والقواد من إرضاء شهوات النفوس ونزعات الهدى؛ إنما كان رحمة من الله

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

أرسلها إلى عباده، فهو حيثما حل حلت الرحمة فى أثره، فشملت الصديق والعدو، والمؤمن والكافر، فأخذ كل بحظه منها، كما تأخذ بقاع الأرض على اختلافها من بركات الغيث، فيثمر خِصْبُها، أو يَلْطُف جَوُّها، أو تلين قسوتها.

فتح هذا العفو قلوب أهل مكة للإسلام وملأها بمحبة الرسول

لقد نزل هذا العفو الكريم بردًا وسلامًا على تلك القلوب القاسية، التى طالما اضطرمت بالعداوة لهذه النفس الخيِّرة، وطالما أعماها الحقد عن مجاوبة هذا القلب الرحيم؛ فقد ظل صلى الله عليه وسلم نَيِّفًا وعشرين عامًا ينشد الخير لهؤلاء الناس، ويحاول بكل وسيلة أن يوجههم إليه ويرغبهم فيه؛ ولكنهم عموا وصموا، ﴿وقالوا قلُوبنا فى أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفى آذاننا وَقْرٌ ومن بيننا وبينك حجاب﴾، وبادلوه عداوة بمودة، وإساءة بإحسان، وكذبوه وقاطعوه وأخرجوه، وحاربوه وألَّبوا عليه، وظلوا دهرهم يتربصون به الدوائر، ويتحينون فيه الفرص. فلما أظهره الله عليهم، وأمكنه من رقابهم، نسى كل ما سلف من مساءاتهم وعداوتهم، وكافأهم بالصفح الجميل والعفو الشامل.. فأيَّة نفس عظيمة هذه النفس! إنها نفس الرسول الكريم، الذى لم يكن يضمر قط إلا الخير، ولم يكن يبغى إلا الصلاح، والذى

لم يكن قط جبارًا ولا ظالمًا ولا منتقمًا لنفسه، ولم يكن فى غضبه ورضاه إلا كما يقول الله سبحانه: ﴿لقَدْ جَاءكُم رسُولٌ مِنْ أنفُسكُم عزيزٌ عليْهِ مَا عَنِتُّمْ حَريصٌ عليْكم بالمؤمِنِين رَءوفٌ رَحِيمٌ﴾[1].

لقد كان هذا العفو فتحًا آخر، فتح الله به أغلاق هذه القلوب المنكِرة، وطوَى به عنان هذه النفوس المستكبرة، فغدت تفيض بالحب والإخلاص، وتدين بالطاعة والولاء، وتنضوى تحت لواء الرسول طائعة مستسلمة، وتدخل فى دينه راضية مطمئنة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ولاَ تَسْتوى الحسنةُ ولا السيِّئة، ادفع بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينهُ عَداوةٌ كانه وَلِىٌّ حميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذُو حظٍّ عظيم﴾[2].

وهكذا فتحت مكة أبوابها لدعوة الإسلام، وألقت مقاليدها إلى رسولها الأمين، فانهدم بذلك حصن الشرك العتيد، وانهار ذلك السد المنيع الذى قام حيال الدعوة منذ قامت.. ومنذ ذلك اليوم صارت مكة كعبة الإسلام، وقبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وستظل كذلك إن شاء الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) سورة فصلت آيتا ٣٤، ٣٥.